

حيان دحان | Haian Dukhan*

رهف الدغلي | Rahaf Aldoughli**

سوسيولوجيا انهيار نظام الأسد: الطائفة العلوية وتفكك العقد الاجتماعي (2011-2024)

The Sociology of the Assad Regime's Collapse: The Alawite Community and the Erosion of the Social Contract (2011-2024)

تتناول هذه الدراسة التحولات التي شهدتها العلاقة بين نظام الأسد والطائفة العلوية خلال الحرب السورية، وتبحث في كيفية انتقالها من علاقة قائمة على الحماية والولاء إلى أخرى مثقلة بالاستنزاف والخذلان والانقسام الداخلي. وتنطلق من فرضية مفادها أن الطائفة العلوية لم تكن كتلة اجتماعية متجانسة، وأن اصطفاك قطاعات واسعة منها خلف النظام خلال السنوات الأولى من الحرب ارتبط بتداخل توظيف النظام للخوف الوجودي مع مخاوف فعلية نتجت من تصاعد العنف والخطاب الطائفي. وتعتمد الدراسة منهجاً كميّاً تأويليّاً، يستند إلى مقابلات مع مشاركين من منطقة الساحل السوري، وإلى قراءة تحليلية للأدبيات ذات الصلة. وتحتاج بأن طول أمد الحرب، وارتفاع الخسائر البشرية، وتدهور الأوضاع المعيشية، وصعود اقتصاد الحرب، عوامل أدت مجتمعة إلى تآكل العقد السلطوي الضمني بين النظام وقاعدته العلوية. وتخلص إلى أن هذا التآكل لا يفسر سقوط النظام وحده، لكنه يكشف بُعداً داخليّاً مهماً من مسار الانهيار؛ إذ تحولت الطائفية من أداة للتعبئة والضبط إلى عبء سياسي واجتماعي محدود القدرة على إنتاج الولاء.

كلمات مفتاحية: سورية، نظام الأسد، الطائفة العلوية، العقد السلطوي الضمني، الطائفية السياسية، اقتصاد الحرب.

This study traces the shift in the relationship between the Assad regime and the Alawite community during the Syrian war from one structured around protection and loyalty to one marked by exhaustion, disillusionment, and internal fragmentation. It argues that the Alawite community was never a homogeneous social bloc, and that the early alignment of broad Alawite segments with the regime can be attributed to the intersection between the regime's instrumentalization of existential fear and anxieties produced by escalating violence and sectarian rhetoric. The study adopts an interpretive qualitative approach based on interviews with participants from Syria's coastal region, alongside a critical reading of relevant literature. It argues that the prolonged war, increased human losses, the decline in living conditions, and the emergence of war-economy networks gradually eroded the implicit authoritarian bargain between the regime and its Alawite base. It concludes that while this erosion alone does not explain the fall of the regime, it reveals an important internal dimension of the collapse, as sectarianism transformed from a tool of mobilization and control into a political and social burden increasingly unable to reproduce loyalty.

Keywords: Syria, Assad Regime, Alawite Community, Implicit Authoritarian Contract, Political Sectarianism, War Economy.

* محاضر في السياسة والعلاقات الدولية في جامعة تيسايد بالمملكة المتحدة، وزميل في مركز الدراسات السورية بجامعة سانت أندروز.
Lecturer in Politics and International Relations at Teesside University in the United Kingdom, and a Fellow at the Centre for Syrian Studies at the University of St Andrews.
Email: dukhan.sy@gmail.com

** أستاذة العلوم السياسية في جامعة لان كاستر بالمملكة المتحدة.
Professor of Political Science at Lancaster University in the United Kingdom.
Email: r.aldoughli@lancaster.ac.uk

مقدمة

المعيشية، واتساع الفجوة بين القواعد الاجتماعية الفقيرة والنخب المرتبطة باقتصاد الحرب ومراكز النفوذ. ولا تهدف الدراسة، في هذا الإطار، إلى تقديم تفسير أحادي لسقوط النظام، أو اختزال الحرب السورية في بعدها الطائفي، بل إلى إظهار إسهام التفكك التدريجي في العلاقة بين النظام وإحدى ركائزه الاجتماعية الأساسية في إضعافه من الداخل، وتحول الطائفية من أداة للتعنت والضبط إلى عبء سياسي واجتماعي فقد تدريجيًا قدرته على إنتاج الولاء.

وتعتمد الدراسة منهجًا كافيًا تأويليًا لفهم التحولات التي طرأت على العلاقة بين نظام الأسد والطائفة العلوية خلال الحرب السورية، وانعكاسها على تماسك إحدى أهم القواعد الاجتماعية التي استند إليها النظام تاريخيًا. ومن هذا المنطلق، تستند إلى عشر مقابلات أجريت عن بُعد مع مشاركين من خلفيات اجتماعية ومهنية مختلفة في اللاذقية وطرطوس وجبلة، إلى جانب قراءة تحليلية للأدبيات ذات الصلة بالعلاقة بين السلطة وقاعدتها الاجتماعية في الأنظمة السلطوية. ويهدف الجمع بين المقابلات والمصادر الثانوية إلى بناء قراءة تأويلية تربط بين الخبرة المعيشية والأطر السوسيولوجية والسياسية الأوسع.

ولا تدعي الدراسة أن هذه المقابلات تمثل جميع أبناء الطائفة العلوية أو تختزل مواقفهم في اتجاه واحد، بل تستخدمها بوصفها مادة كفية تساعد على تتبع أخطاء متكررة في اللغة والتجربة والتقييم الذاتي للعلاقة مع النظام. لذلك، جرى التعامل مع الشهادات بوصفها مدخلًا لفهم التفاوتات والانقسامات داخل البيئة العلوية، لا مرآة كاملة لها. وقد فرض إجراء المقابلات عن بُعد حدودًا منهجية، تتعلق بإمكان التوسع في العينة أو التحقق المباشر من بعض التفاصيل الميدانية، إلا أن هذا الخيار كان مناسبًا بالنظر إلى حساسية الموضوع وصعوبة الوصول الآمن إلى المشاركين في السياق السوري⁽¹⁾.

وجرت معالجة المقابلات اعتمادًا على التحليل الموضوعي لاستخراج الأنماط الدلالية الرئيسة التي تكررت في الشهادات، ولا سيما ما يتعلق بمعاني الحماية والخوف والولاء والإرهاق والانقسام الداخلي. وأتاح هذا الأسلوب تتبع التحول من خطاب يقوم على الحماية والالتزام إلى خطاب يتزايد فيه الامتناع والتشكيك والانسحاب الرمزي من سردية النظام. واستفادت الدراسة من الأدبيات المتعلقة بالبحث الكيفي في تصميم أدوات المقابلة وتنظيم المادة وتحليلها، ولا سيما ما طرحه ألان برايمان Alan Bryman بشأن بناء البحث الكيفي، وما

تناقش هذه الدراسة التحولات التي شهدتها العلاقة بين نظام الأسد والطائفة العلوية خلال الحرب السورية، وتبحث في الكيفية التي أسهم بها تآكل هذه العلاقة في إضعاف إحدى أهم القواعد الاجتماعية التي استند إليها النظام تاريخيًا، وصولًا إلى سقوطه في كانون الأول/ديسمبر 2024. وتنطلق من سؤالين رئيسين: كيف أعادت الحرب السورية تشكيل العلاقة بين النظام والطائفة العلوية؟ وكيف أسهم هذا التحول في تقويض تماسك النظام وإضعاف قدرته على الاستمرار؟ ولا تفترض الدراسة أن سقوط النظام يمكن تفسيره بهذا العامل وحده، بل تحتاج بأن التحولات داخل البيئة العلوية تمثل مدخلًا أساسيًا لفهم جانب مهم من مسار الانهيار، إلى جانب عوامل داخلية وخارجية أخرى، من بينها التحولات الاقتصادية والعسكرية، والتدخلات الإقليمية والدولية، وتبدل موازين القوة خلال سنوات الحرب.

وتعتمد الدراسة مقارنة سوسيولوجية، تركز على العلاقة بين السلطة وقاعدتها الاجتماعية. لكنها لا تستخدم مفهوم العقد الاجتماعي بالمعنى الكلاسيكي، الذي يشير إلى العلاقة بين الدولة والمجتمع عمومًا، بل توظفه بصفة أكثر تحديدًا للإشارة إلى ترتيب سياسي ضمني، نشأ بين النظام وجماعة اجتماعية بعينها، قوامه توفير الحماية والامتيازات والتمثيل الرمزي في مقابل الولاء السياسي والعسكري. وبهذا المعنى، لا يُقصد عقد اجتماعي وطني جامع، بل علاقة تاريخية غير متكافئة بين سلطة سلطوية وقاعدة اجتماعية رأت في استمرار هذه السلطة ضمانًا لأمنها ومكانتها في بنية الدولة. وتنطلق الدراسة أيضًا من افتراض أن الطائفة العلوية لم تكن كتلة اجتماعية متجانسة ذات موقف واحد، بل فضاء اجتماعيًا شهد تمايزات داخلية على أسس طبقية ومناطقية وسياسية. وقد عمقت الحرب هذه التفاوتات، وأنتجت مستويات متزايدة من التوتر بين النخب المرتبطة بالسلطة والفئات التي تحملت العبء الأكبر من الاستنزاف البشري والاقتصادي.

ومع اندلاع الثورة السورية عام 2011، أعاد النظام تفعيل خطاب الخوف الوجودي لتعبئة هذه القاعدة الاجتماعية، وصوّر الصراع بوصفه تهديدًا مباشرًا للأقليات في سورية، ولا سيما الأقلية العلوية. غير أن الدراسة تميز بين توظيف النظام للخوف من جهة، ووجود مخاوف فعلية ارتبطت بتصاعد العنف، واتساع الخطاب الطائفي، وتزايد حضور الفصائل المسلحة ذات النهج الإقصائي من جهة أخرى. ومن ثم، يفهم تماسك جزء من البيئة العلوية خلف النظام في السنوات الأولى من الحرب أيضًا، بوصفه استجابة لمأزق وجودي معقد، فرضته ظروف الحرب. لكن هذا الترتيب بدأ يتآكل تدريجيًا مع طول أمد الصراع، وتصاعد الخسائر البشرية، وتدهور الأوضاع

1 حفاظًا على سرية هويات المشاركين في المقابلات وسلامتهم، استخدمنا أسماء مستعارة في جميع الإحالات إلى المقابلات، وحذفنا أي معلومات قد تؤدي إلى الكشف عن هوياتهم. ونذكر تواريخ المقابلات بالشهر والسنة؛ إذ أجريت عن بُعد في آب/أغسطس 2024. وقد أبلغ المشاركون مسبقًا بأهداف البحث وطبيعة استخدام المقابلات، ووافقوا على اقتباس إفاداتهم في الدراسة شرط عدم الكشف عن هوياتهم.

إلى السلطة بعد انقلاب 8 آذار/ مارس 1963، بدأت فئات من الضباط العلويين تحتل مواقع متقدمة داخل الجيش وأجهزة الدولة، مستفيدة من تلاقي عوامل اجتماعية ومؤسسية وسياسية في تلك المرحلة. ومع ذلك، لا ينبغي اختزال هذا المسار في تفسير طائفي صرف؛ لأن صعود العلويين داخل مؤسسات الدولة لم يكن نتيجة هوية طائفية مجردة، بل جاء أيضًا في سياق تحولات أوسع شملت تراجع النخب التقليدية، وصعود الشرائح الريفية، واتساع دور الجيش في الحياة السياسية. وحينما استولى حافظ الأسد على السلطة عام 1970، دخلت العلاقة بين الدولة والطائفة مرحلة جديدة؛ إذ أصبحت شخصيات وشبكات علوية تحتل مواقع مؤثرة داخل الأجهزة الأمنية والعسكرية. غير أن ذلك لا يعني أن الطائفة كلها تحولت إلى طبقة حاكمة أو أنها استفادت بالتساوي من هذا الصعود. فحكم الأسد الأب (1970-2000) قام على شبكة سلطوية ضيقة تركزت حول العائلة والدوائر الأمنية والولاءات الشخصية، وكان للعلويين داخلها حضور وازن، لكنه لم يُلغِ التفاوتات الداخلية الحادة بين نخبة نافذة وغالبية بقيت في مواقع اجتماعية أقل استفادة من السلطة⁽⁴⁾.

وعند انتقال السلطة إلى بشار الأسد عام 2000، ورث نظامًا سلطويًا يستند إلى هذه الشبكات الأمنية والزبونية، لكنه واجه في الوقت نفسه تراجعًا في فعالية الخطاب البعثي التقليدي، وتزايدًا في وزن المحسوبية والروابط غير الرسمية في إدارة الحكم. وقد عمّق الانفتاح الاقتصادي غير المتكافئ، واتساع شبكات الفساد، وصعود فئات مرتبطة مباشرة بالعائلة الحاكمة، التفاوتات داخل البيئة العلوية نفسها؛ إذ اقتصرست الاستفادة من القرب إلى مراكز النفوذ على شرائح محدودة، في حين استمرت فئات أوسع في مواجهة الفقر والبطالة والتهمة. ومن هنا، لم تكن العلاقة بين النظام والطائفة، قبيل اندلاع الثورة السورية عام 2011، علاقة تطابق كامل، بل علاقة مرّبة جمعت بين الشعور بأن النظام يوفر قدرًا من الحماية والتمثيل، من جهة، وإدراك متزايد لدى بعض أبناء الطائفة بأنهم يدفعون تكلفة بقاء سلطة لا توزع الموارد والنفوذ بصورة عادلة، من جهة أخرى. وقد مثل هذا التناقض أحد الشروط البنيوية التي تعمقت لاحقًا مع اندلاع الثورة واتساع نطاق الحرب، حينما بدأت العلاقة بين النظام وقاعدته الاجتماعية العلوية تتعرض لتصدعات متزايدة تحت ضغط الاستنزاف العسكري والاقتصادي والسياسي⁽⁵⁾.

يقدمه ديفيد سيلفرمان David Silverman في التعامل مع البيانات التفسيرية وتحويلها إلى تحليل منظم.

أولاً: خلفية تاريخية

تعود جذور العلاقة المعقدة بين الطائفة العلوية والدولة السورية إلى تاريخ طويل من التهميش الاجتماعي والسياسي في العهد العثماني، حينما نُظر إلى العلويين بوصفهم جماعة مذهبية تقع خارج المذهب الإسلامي السائد، وتعرّضوا تبعًا لذلك لأشكال متعددة من العزل والوصم والإقصاء. وأسهم هذا التهميش، إلى جانب العزلة الجغرافية في جبال الساحل السوري، في ترسيخ شعور تاريخي بالهشاشة والارتباك في العلاقة مع المركزين السياسي والاجتماعي في المدن الكبرى⁽²⁾. ولم يكن التهميش دينيًا أو رمزيًا فحسب، بل اقترن أيضًا بظروف اقتصادية قاسية وضعف الاندماج في شبكات التجارة والنفوذ والإدارة؛ ما جعل قطاعات واسعة من العلويين تعيش طويلاً على هامش الدولة والمجتمع المدني. ومع فرض الانتداب الفرنسي على سورية (1920-1946)، شهد موقع الطائفة العلوية تحولاً مهماً؛ إذ سعت سلطات الانتداب إلى إدارة التعدد السوري من خلال سياسات التفكيك وإعادة الضبط، وكان من بينها إنشاء كيان إداري خاص بالعلويين، وتشجيع أنبائهم على الانخراط في القوات الخاصة والمؤسسات العسكرية المحلية. وقد أتاح ذلك فرصاً غير مسبقة للتقدم الاجتماعي والحضور داخل أجهزة السلطة، لكنه لم يؤدِّ إلى دمج العلويين دمجًا متكافئًا في الدولة الحديثة، بقدر ما أعاد صياغة علاقتهم بها من خلال موقع وظيفي ارتبط بالحماية والسلطة المركزية أكثر من ارتباطه بالمواطنة الكاملة⁽³⁾.

بعد استقلال سورية وجلاء القوات الفرنسية عنها عام 1946، لم يتغير الوضع الاجتماعي والاقتصادي للغالبية العظمى من العلويين بصورة جذرية؛ إذ بقيت فئات واسعة منهم ضمن الشرائح الريفية الفقيرة، غير أن المؤسسة العسكرية استمرت بوصفها قناة رئيسة للحراك الاجتماعي والسياسي. ومع توالي الانقلابات العسكرية في أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته، ثم وصول حزب البعث العربي الاشتراكي

2 تورشتين شيوتر وورن، العلويون: الخوف والمقاومة؛ كيف بنى العلويون هويتهم الجماعية في سورية؟، ترجمة ماهر الجندي، مراجعة فادي كحلوس (إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة؛ دار ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع، 2018)، ص 14-15.

3 ينظر:

Max Weiss, "Community, Sect, Nation: Colonial and Social Scientific Discourses on the Alawis in Syria during the Mandate and Early Independence Periods," in: Michael Kerr & Craig Larkin (eds.), *The Alawis of Syria: War, Faith and Politics in the Levant* (Oxford: Oxford University Press, 2015), pp. 63-78; Aslam Farouk-Alli, "The Genesis of Syria's Alawi Community," in: Kerr & Larkin (eds.), pp. 27-48.

4 Raymond Hinnebusch, *Authoritarian Power and State Formation in Ba'thist Syria: Army, Party and Peasant* (Boulder: Westview Press, 1990), pp. 160-163.

5 Aron Lund, *The Ghosts of Hama: The Bitter Legacy of Syria's Failed 1979-1982 Revolution* (Stockholm: Swedish International Liberal Centre, June 2011), pp. 14-15, 18-19, 33-36.

ثانيًا: العقد السلطوي الضمني والطائفية السياسية: مدخل نظري

وعلى المستوى السوسيولوجي، تستفيد الدراسة من مفهوم الهيمنة الرمزية لفهم الكيفية التي نجح بها النظام في جعل استمراره يبدو، لدى علويين كثر، شرطاً لأمن الجماعة وبقائها. فلم يكتفِ باستخدام أدوات القسر المباشر، بل عمل أيضاً على تشكيل إدراك سياسي واجتماعي يربط بين السلطة والحماية، من جهة، وبين انهيار النظام والانكشاف الوجودي⁽⁹⁾، من جهة أخرى. غير أن هذا الامتثال لم يكن ناتجاً من الخداع الرمزي وحده، بل ارتبط كذلك بتجربة حرب فعلية اتسمت بالعنف الطائفي، وصعود الخطابات الإقصائية، وتزايد المخاوف من البدائل المسلحة⁽¹⁰⁾. ومن ثم، لا يفهم ولاء قطاعات من البيئة العلوية للنظام في السنوات الأولى من الحرب بوصفه ثمرة تعبئة سياسية أو هيمنة رمزية فحسب، بل أيضاً بوصفه استجابة لمأزق وجودي معقد فرضته ظروف الحرب. وفي المقابل، يمكن فهم تآكل هذه العلاقة لاحقاً من خلال تراجع فعالية الحماية، وانكشاف حدود الطائفية بوصفها أداة للتعبئة، واهتزاز السيطرة الرمزية حين لم يعد الخطاب الرسمي قادراً على الانسجام مع التجربة المعيشة لأبناء الطائفة خلال سنوات الصراع.

ثالثاً: التحولات داخل الطائفة أثناء الحرب (2011-2014)

1. الخوف الوجودي وبناء التعبئة الأولى

منذ اندلاع الثورة السورية، في آذار/ مارس 2011، لجأ النظام إلى تعبئة قاعدته الاجتماعية الأساسية، أي الطائفة العلوية، من خلال خطاب يقوم على الخوف الوجودي. فقد سعى، منذ الأيام الأولى، لتصوير الاحتجاجات الشعبية التي انطلقت من درعا وحمص وريف دمشق بوصفها مؤامرة تستهدف الأقليات، وفي مقدمتها العلويون، لا حركة تطالب بالإصلاح⁽¹¹⁾. واستعاد هذا الخطاب سردية تاريخية راسخة في الوعي الجمعي العلوي، مفادها أن الجماعة محاطة دائماً بالأعداء، وأن وجودها مرتبط ببقاء الدولة التي يهيمن أبنائها على بعض مفاصلها. وفي الإعلام الرسمي، تكررت الإشارات إلى "الفتنة الطائفية" و"الخطر السلفي"، في محاولة لربط الثورة بمشاريع خارجية تسعى

تعتمد الدراسة مفهوم العقد السلطوي الضمني بوصفه مدخلاً تحليلياً لفهم العلاقة بين نظام الأسد والطائفة العلوية. ولا يقصد به العقد الاجتماعي بمعناه الكلاسيكي، الذي يفترض علاقة عامة بين الدولة والمجتمع ككل، بل ترتيب سياسي غير صريح نشأ بين سلطة سلطوية وقاعدة اجتماعية محددة، وقام على تبادل الحماية والتمثيل والاقتراب من مراكز الدولة في مقابل الولاء السياسي والعسكري. وبهذا المعنى، لا تفهم العلاقة بين النظام والطائفة بوصفها اندماجاً كاملاً أو تطابقاً سياسياً مطلقاً، بل علاقة تاريخية غير متكافئة تشكلت في سياق شروط اجتماعية وسياسية محددة، وأعيد إنتاجها عبر مؤسسات الأمن والجيش والرموز السياسية. ويساعد هذا المدخل على فهم الكيفية التي بنت بها السلطة شرعيتها داخل هذه البيئة، لا من خلال المشاركة السياسية أو المواطنة المتساوية، بل عبر وعود الحماية وإدارة الامتيازات والخوف، ضمن سياق سوري اتسم بضعف الاندماج الوطني وتكرار أنماط الحكم السلطوي⁽⁶⁾.

وانطلاقاً من ذلك، لا تتعامل الدراسة مع الطائفية بوصفها هوية ثابتة أو عصبية مغلقة، بل أداة سياسية ارتبطت ببنية السلطة وطريقتها في إدارة المجتمع. فعندما تعجز الدولة عن إنتاج رابطة وطنية جامعة، أو تلجأ إلى إعادة تنظيم المجالين السياسي والاجتماعي على أسس ما دون وطنية، تتحول الطائفة إلى مورد للتعبئة والضبط وإعادة توزيع المواقع والموارد⁽⁷⁾. وفي الحالة السورية، وعلى الرغم من أن النظام تبنى خطاباً قومياً وعلمانياً، أعاد تفعيل الانتماء الطائفي بوصفه مورداً سياسياً في لحظات التهديد، وربط استمراره في الحكم بمعاني الحماية والبقاء داخل المخيال السياسي لقطاعات من أبناء الطائفة العلوية. غير أن ذلك لا يعني أن الطائفة كانت كتلة متجانسة أو أن جميع أبنائها استفادوا من النظام على نحو متساوٍ؛ إذ ظلت العلاقة بين السلطة وهذه البيئة الاجتماعية مشروطة بتفاوتات داخلية على أسس طبقية ومناطقية وسياسية. ومن هنا تبرز ضرورة التمييز بين الطائفة بوصفها جماعة اجتماعية متنوعة، والطائفية بوصفها أسلوباً في الحكم والتعبئة⁽⁸⁾.

6 Hinnebusch, pp. 313-316.

7 Azmi Bishara, *Sectarianism without Sects* (London: Hurst & Company, 2021), p. 207;

وللاطلاع على طبعة عربية مبكرة، ينظر: عزمي بشارة، *الطائفة، الطائفية، الطوائف المتخيلة*، ط 2 (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018).

8 برهان غليون، *المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات*، ط 3 (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013 [1979])، ص 14.

9 Lisa Wedeen, *Ambiguities of Domination: Politics, Rhetoric, and Symbols in Contemporary Syria* (Chicago: University of Chicago Press, 1999), p. 6.

10 Fanar Haddad, *Understanding Sectarianism: Sunni-Shi'a Relations in the Modern Arab World* (London: Hurst & Company, 2020), p. 7.

11 فراس أبو هلال، "الطائفية والثورة السورية المجيدة"، *الجزيرة نت*، 2013/6/28، شوهد في 2026/7/27، في: <https://acr.ps/hBy2stM>

هذا النوع من التعبئة، على الرغم من فعاليته في المدى القصير، زرع منذ بدايته بذور الإنهاك والشك. فعندما يُبنى الولاء على الخوف، يصبح الخوف نفسه مصدرًا للانقسام. ومع استمرار الاقتتال خلال عامي 2012 و2013، بدأ بعض العلويين يشكون في صدقية الخطاب الرسمي، ولا سيما بعدما أدركوا أن الحرب تتسع وتتجاوز حدود "الدفاع عن قراهم". ويقول أحد المشاركين في المقابلات، من جبهة، إن "الناس في البداية صدّقوا أن هناك خطرًا على الطائفة، لكنهم بعد عامين بدؤوا يتساءلون: لماذا لا يموت غير أولادنا؟"⁽¹⁶⁾. ويعكس هذا التساؤل المبكر بداية وعي متزايد بأن الخوف الذي استخدمه النظام لتوحيدهم أصبح عبئًا يفرقهم داخليًا. ومن ثم، لا يُفهم الاصطفاف خلف النظام في المرحلة الأولى من الحرب بوصفه نتيجة للتعبئة الدعائية فحسب، بل أيضًا بوصفه استجابة لمأزق وجودي معقد فرضته ظروف الحرب نفسها.

2. عسكرة الطائفة وتحول الولاء إلى التزام قسري

أدت حالة الخوف التي أشاعها النظام منذ عام 2011 إلى تحويل الطائفة العلوية من قاعدة اجتماعية داعمة إلى خزان بشري للحرب. ومع اتساع رقعة المواجهات المسلحة بين النظام والثوار عام 2012، شرع النظام في عسكرة الجماعة العلوية من خلال سياسات تجنيد إلزامية وأخرى طوعية موجهة. وفي الوقت الذي كانت فيه قطاعات من السوريين تعلن انشقاقها عن الجيش، كانت القرى العلوية تتحول تدريجيًا إلى معسكرات للتجنيد. وقد أعاد هذا التحول إنتاج علاقة جديدة بين الدولة والطائفة، لم تعد قائمة على الثقة أو الولاء الطوعي، بل على التزام قسري فرضته الضرورة والخوف. ويمكن فهم هذا التحول أيضًا في ضوء الأدبيات التي ترى أن الطائفية السياسية لا تعكس انتماءً اجتماعيًا سابقًا على السياسة، بل تنشأ عندما تكتسب الهويات الاجتماعية معنى سياسيًا مباشرًا في الصراع على السلطة والدولة⁽¹⁷⁾.

وتذكر شهادات ميدانية من مناطق الساحل أن مشاهد الجنازات العسكرية كانت جزءًا من الحياة اليومية بين عامي 2012 و2014. ويقول أحد سكان القرداحة: "في كل أسبوع، كنا نودع شابًا أو اثنين، ولم يعد هناك بيت بلا شهيد أو جريح"⁽¹⁸⁾. وتختزل هذه الجملة مدى تغلغل الحرب في البنية الاجتماعية للطائفة؛ إذ لم تعد المشاركة

لتفكيك سورية على أساس طائفي⁽¹²⁾. ومن خلال هذا التأطير، حوّل النظام الخوف إلى أداة للتعبئة السياسية، ضمن استمرارية طويلة في استخدام الطائفية آلية للحكم.

وقد وجد هذا الخطاب صدى قويًا لدى قطاعات واسعة من الجماعة العلوية، رأت في التحركات الاحتجاجية تهديدًا مباشرًا لمكانتها المكتسبة، منذ سبعينيات القرن العشرين. وأعيد تنشيط ذاكرة العزلة التاريخية، الممتدة من العهد العثماني إلى بدايات الاستقلال، لتصبح جزءًا من عملية التعبئة النفسية والسياسية⁽¹³⁾. ويقول أحد المشاركين في المقابلات، من اللاذقية، إن "كثيرين شعروا أن سقوط النظام يعني عودتنا إلى الجبال"، في إشارة رمزية إلى الخوف من فقدان المكانة التي وفرها لهم نظام الحكم القائم⁽¹⁴⁾. وبذلك تحولت الذاكرة الجمعية إلى مورد سياسي وظفه النظام لتجديد شرعيته المتآكلة. وأسهمت خبرات الحرب والعنف الطائفي في ترسيخ تصورات جماعية، ربطت بين الاستقرار واستمرار السلطة من جهة، وبين التغيير السياسي واحتمالات الانكشاف الأمني من جهة أخرى⁽¹⁵⁾. ومع ذلك، لا يمكن اختزال فعالية هذا الخطاب في التلاعب السلطوي وحده؛ إذ إن تصاعد العنف، وظهور خطابات دينية إقصائية، وتزايد حضور جماعات مسلحة حمل بعضها نزعات انتقامية، عوامل منحت هذا الخوف أساسًا واقعيًا لدى قطاعات من العلويين، وإن عمل النظام على تضخيمه وتوجيهه سياسيًا.

واستُخدم هذا الخطاب أيضًا لتبرير تصاعد القمع منذ الأشهر الأولى للثورة؛ فجرى التعامل مع كل احتجاج بوصفه تهديدًا وجوديًا، ووُصف كل معارض بأنه عميل أو إرهابي. وهكذا اندمج مفهومًا "الأمن الوطني" و"حماية الطائفة" في خطاب واحد، هدفه حشد الدعم الداخلي ومنح أجهزة الأمن تفويضًا مفتوحًا باستخدام العنف. ووفقًا للمشاركين الذين أجريت معهم المقابلات، نُظمت لقاءات محلية في القرى العلوية لحث الشباب على الانضمام إلى الجيش أو اللجان الشعبية "للدفاع عن الوطن"، غير أن الرسالة الفعلية كانت أوضح: "إذا سقط النظام، سنُذبح جميعًا". وقد كثفت هذه العبارة التي تكررت على السنة شيوخ موالين، المنطق الذي حكم التعبئة الأولى؛ فقد أُلغيت الحدود بين بقاء النظام وبقاء الجماعة. غير أن

12 ياسر نديم سعيد، "مقاربة ثنائية (سني-علوي) في الثورة السورية: كيف وصلنا إلى المجازر الحالية؟"، الجمهورية، 2012/6/15، شوهد في 2026/7/27، <https://acr.ps/hBy2su6> في: 2026/7/27

13 ميخائيل سعد، "أسئلة طائفية وإجابات طائفية"، زمان الوصل، 2013/9/24، شوهد في 2026/7/27، <https://acr.ps/hBy2sKH> في: 2026/7/27

14 المشاركون سامر (اسم مستعار)، مقابلة عن بعد، آب/أغسطس 2024.

15 Haddad, p. 5.

16 المشاركون رامي (اسم مستعار)، مقابلة عن بعد، آب/أغسطس 2024.

17 Bishara, p. 206.

18 المشاركون نادر (اسم مستعار)، مقابلة عن بعد، آب/أغسطس 2024.

الانتماء أكثر من كونه تعبيراً عن القناعة، حتى أصبح الولاء أداءً اجتماعياً وسياسياً يصعب الانسحاب منه من دون ثمن باهظ.

وبمرور الوقت، أخذت الحرب تلتهم جيل الشباب في القرى العلوية، وبدأت الأسرة الواحدة تفقد أكثر من ابن خلال فترات قصيرة. وقد ولد هذا النزيف البشري شعوراً جماعياً بالخذلان؛ فقد شعر كثير من الأهالي بأن النظام يستنزف أبناءهم من دون هدف واضح⁽²³⁾. ولخص أحد المعلمين في طرطوس هذا المزاج بقوله: "لم نعد نقاتل من أجل الأسد أو سورية، بل نقاتل لأننا لا نعرف طريقاً آخر"⁽²⁴⁾. وتعكس هذه العبارة جوهر التحول من الولاء الطوعي إلى الولاء القسري الناتج من انسداد الأفق. ومع غياب أي تصور لنهاية الحرب، تحول القتال إلى طقس اجتماعي مفروض، مثل الخدمة الإجبارية أو دفع الضرائب. وأصبح الناس يقاتلون لأنهم لا يملكون خياراً بديلاً.

ولم تكن عسكرة الطائفة في تلك المرحلة نتيجة طبيعية للحرب، بل سياسة متعمدة هدفت إلى ربط مصير المجتمع العلوي بمصير النظام. فحين يوجد في كل بيت جندي أو قتيل، تصبح الجماعة بأكملها رهينة استمرار القتال. وهكذا، رسخ النظام شبكة من التبعية القسرية يصعب تفكيكها، لكنه زرع في الوقت نفسه بذور الشك والمرارة التي ستظهر لاحقاً في صورة نقد داخلي متنامٍ. فالمجتمع الذي يعيش في حرب دائمة يفقد تدريجياً قدرته على التمييز بين الحماية والاستغلال، وبين التضحية والعبث، وهي الحالة التي ستشكل نواة التحولات الأعمق في السنوات التالية.

3. الانقسام الاجتماعي والاقتصادي داخل البيئة العلوية

مع تصاعد الحرب بين عامي 2012 و2014، لم تعد الطائفة العلوية تبدو كتلة متماسكة كما بدت في بدايتها، بل أخذت تظهر داخلها انقسامات طبقية ومناطقية واضحة، كشفت التفاوت العميق بين من استفاد من الحرب ومن دفع ثمنها. فعلى الرغم من أن النظام صور نفسه بوصفه حامياً للطائفة جمعاء، فإن سياساته الاقتصادية والعسكرية خلال تلك الفترة عمقت الشرخ بين علويي المدن وعلويي القرى الجبلية، وبين النخب الاقتصادية الجديدة والفئات الفقيرة التي تحمّلت العبء الأكبر من القتال. ولا يمكن فهم هذا الشرخ بوصفه نتيجة عرضية للحرب فحسب، بل امتداداً لبنية سلطوية قامت، كما يوضح باسل حداد، على شبكات انتقائية من الرعاية والمحسوبية؛

في القتال قراراً فردياً، بل غدت قدراً جماعياً. وقد وفر النظام بذلك وسيلة فعالة لتأمين استمرار المعارك، لكنه عمق، في الوقت نفسه، تبعية المجتمع له. فالشاب الذي يُستدعى إلى الجبهة لا يستطيع الرض من دون أن يُتهم بالخيانة أو الجبن، والأسرة التي تفقد ابنها لا تملك إلا أن ترفع صور الأسد انقاءً للمساءلة. وهكذا، لم يعد الانتماء إلى النظام خياراً سياسياً، بل أصبح حالة من الإكراه الاجتماعي يحكمها الخوف من العقاب أو النبذ. ومن هذا المنظور، لا تبدو عسكرة الطائفة نتيجة للتنوع الأهلي في ذاته، بل نتاجاً لبنية سياسية أضعفت المواطنة المتساوية، وربطت الحماية بالامتثال، وأعادت تنظيم الخوف والولاء على أسس طائفية⁽¹⁹⁾.

ومع تزايد أعداد القتلى، تحولت الجنازات نفسها إلى فضاءات للنقد المكبوت. فبحسب روايات ميدانية، بدأت بعض الأمهات في اللاذقية وجبله يرفضن ترديد الشعارات الرسمية أثناء التشييع، ويصرخن في وجه مسؤولي الحزب والجيش بعبارات مثل: "أعيدوا أبناءنا قبل أن نتحدثوا عن الوطن"⁽²⁰⁾. ويشير هذا التحول في الخطاب العاطفي، من الصبر إلى الغضب، إلى بداية تصدع العلاقة بين الدولة والجماعة العلوية؛ إذ لم تعد رمزية "الشهيد" قادرة على احتواء الألم أو إعادة إنتاج المعاني التي استند إليها خطاب الحرب. فكلما ارتفعت التكلفة البشرية للصراع، تراجعت قدرة السرديات القائمة على الحماية والبقاء على تبرير استمرار التضحيات، وبدأت الأسس الرمزية التي دعمت الولاء للنظام تهتز داخل بعض الأوساط الاجتماعية التي شكلت إحدى ركائز دعمه. وقد استند هذا الولاء، في جانب منه، إلى إدراك متزايد بأن سقوط النظام قد يفضي إلى تهديد الجماعة نفسها، وهو ما عزز تماسك العلاقة بين النظام وقواعده الاجتماعية خلال سنوات الحرب الأولى⁽²¹⁾. وتجلت عسكرة الطائفة في إنشاء الميليشيات المحلية المعروفة باسم قوات الدفاع الوطني في نهاية عام 2012، التي اعتمدت على نحو شبه كامل على أبناء منطقة الساحل. وعلى الرغم من أن النظام قدّمها بوصفها قوة تطوعية لحماية الأحياء، فإنها مثلت وسيلة للسيطرة على المجتمع أكثر مما كانت وسيلة دفاعية؛ إذ دمجت الولاء الشخصي مع الانتماء الطائفي، وجعلت المشاركة العسكرية معياراً للانتماء والالتزام. ويقول أحد المشاركين فيها خلال مقابلة ميدانية: "لم نكن نحمل السلاح لنقاتل المعارضة فقط، بل لنثبت ولاءنا"⁽²²⁾. ويكشف هذا التصريح أن الانخراط في الميليشيا كان وسيلة لإثبات

19 غليون، ص 107.

20 المشاركة لنا (اسم مستعار)، مقابلة عن بعد، آب/ أغسطس 2024.

21 Michael Makara, "Rethinking Military Behaviour during the Arab Spring," *Defense & Security Analysis*, vol. 32, no. 3 (2016), pp. 214-215, 219-220.

22 المشارك فادي (اسم مستعار)، مقابلة عن بعد، آب/ أغسطس 2024.

23 عمر أبو خليل، "عشرات القتلى من القرداحة في معارك إدلب"، الجزيرة نت، 2015/3/31، شوهده في 2026/7/27، في: <https://acr.ps/hBy2sKn>

24 المشارك هيثم (اسم مستعار)، مقابلة عن بعد، آب/ أغسطس 2024.

واتخاذ القرار. وتروي إحدى النساء من ريف اللاذقية، في مقابلة مع الباحثين، أنها أصبحت "الأب والأم معاً"، فهي تزرع الأرض، وتربي الأطفال، وتدير شؤون المنزل في غياب الزوج والأبناء. ولم يكن هذا التغيير ظرفاً مؤقتاً فحسب، بل غيّر أيضاً طبيعة الأدوار داخل الأسرة العلوية، وأنتج نوعاً من الوعي الاجتماعي الجديد بين النساء اللواتي بدأن يشككن في خطاب النظام الذي يحتفي بـ "أمهات الشهداء" من دون أن يوفر لهن الحد الأدنى من الدعم.

وفي المدن، كانت الحرب فرصة لبعضهم لتوسيع مصالحهم الاقتصادية بغطاء من الأجهزة الأمنية. فقد أعيد توزيع الثروة بطريقة عززت ارتباط بعض رجال الأعمال بمراكز القرار العسكري، وجعلتهم شركاء في منظومة الفساد الجديدة. ومع غياب الرقابة واحتكار السوق، ظهرت شبكات احتكار مرتبطة بعائلات نافذة داخل النظام، تنتمي غالبيتها إلى الطائفة نفسها. غير أن هذا التداخل بين الانتماء الطائفي والسلطة الاقتصادية لا يعني أن الطائفة تحولت إلى طبقة واحدة مستفيدة، بل أوجد ما تصفه سهام الأتاسي، في تحليلها لدور النخبة الاقتصادية السورية، بموقع تصبح فيه النخب الاقتصادية جزءاً من بنية الصراع نفسه، لا فئة تستفيد منه من الخارج⁽²⁸⁾. ومن هنا، لم تكن التشققات داخل البيئة العلوية نتيجة جانبية للحرب، بل كانت انعكاساً أيضاً لطريقة اشتغال اقتصاد الحرب ذاته، الذي أعاد إنتاج اللامساواة داخل القاعدة الاجتماعية للنظام بدلاً من تخفيفها. وقد أسهمت هذه التفاوتات في إضعاف الشعور الجماعي الذي استند إليه النظام في تعبئة الطائفة في بداية الحرب؛ فبينما كانت القرى تقدّم أبناءها للقتال، كانت النخبة تستثمر في الأسواق والمشاريع العقارية. ومع مرور الوقت، أدرك كثير من العلويين أن معركتهم لم تعد من أجل البقاء، بل في سبيل فئة محددة تسيطر على مقدرات البلاد باسمهم. ولم يكن هذا الإدراك قد تحوّل بعد إلى معارضة علنية، لكنه أسس لما سيتبلور لاحقاً من نقد داخلي ورفض رمزي، عبّرت عنه شعارات مثل "أولادنا يموتون لتعيش السلطة". وهكذا، لم تشهد الأعوام 2012-2014 عسكرة الطائفة فحسب، بل شهدت أيضاً بداية تشكّل انقسامات طبقية داخلها، ستعيد لاحقاً تعريف علاقتها بالنظام.

4. بدايات النقد الداخلي والتحول في الوعي الجمعي

مع اقتراب عام 2014، بدأت الطائفة العلوية تشهد تحولاً ملحوظاً في وعيها الجمعي تجاه النظام، نتيجة التراكم الطويل للخسائر البشرية،

إذ لم يكن القرب من النظام يعني توزيعاً متكافئاً للمكاسب، حتى داخل البيئات الاجتماعية الأقرب إليه، بل إعادة إنتاج غير متكافئة للامتيازات عبر الوسطاء والشبكات المرتبطة بمراكز النفوذ⁽²⁵⁾.

وفي مدن الساحل الكبرى، مثل اللاذقية وطرطوس، استفادت طبقة صغيرة من رجال الأعمال المرتبطين بالأجهزة الأمنية من اقتصاد الحرب؛ إذ حصلت على امتيازات في مجالات التهريب وتجارة الوقود والمواد الغذائية. ومع فرض العقوبات الدولية على النظام، تحوّلت هذه الطبقة إلى وسيط مالي أساسي يضمن استمرار تدفق الموارد إلى أجهزة الدولة. أمّا في القرى الجبلية، فكانت الصورة مختلفة تماماً؛ فقد تدهورت الزراعة، وتراجعت فرص العمل، وأصبح الفقر والبطالة جزءاً من الحياة اليومية. ويقول أحد المشاركين في المقابلات، من ريف طرطوس، إن "القرية لم يعد فيها سوى النساء والأطفال، أما الرجال فإما في الجبهات أو في القبور"⁽²⁶⁾. وتختصر هذه العبارة المأساة الاجتماعية التي عاشتها القرى العلوية، حيث باتت الحرب عبئاً يتركز على فئات محددة، في حين راکمت فئات أخرى الثروة والنفوذ. وبذلك، لم تؤدّ الحرب إلى توحيد البيئة العلوية اجتماعياً، بل عمّقت ما يمكن قراءته، مع جهاد يازجي، بوصفه منطق اقتصاد حرب أعاد توزيع الموارد والفرص على نحو عزز قوة الوسطاء والمستفيدين المرتبطين بالنظام، في حين تركت الفئات التي دفعت الثمن البشري الأكبر في موقع أشد هشاشة اقتصادياً واجتماعياً⁽²⁷⁾.

وأجّج هذا التفاوت شعوراً بالمرارة داخل الطائفة نفسها، وبدأت تظهر في الأحاديث اليومية لغة جديدة تميز بين "علويي السلطة" و"العلويين الفقراء". وبحسب المشاركين الذين أجريت معهم المقابلات، شاع في تلك الفترة وصف أبناء الضباط الكبار بأنهم "أولاد القصور"، في إشارة إلى الرفاهية التي حظوا بها، في مقابل المعاناة التي كان الجنود البسطاء يرضون تحتها. وتكررت على ألسنة الأهالي عبارة "أولادنا يقاتلون وأولادهم يسافرون"، وهي تعبر عن إدراك متزايد بأن النظام لم يعد يمثلهم، بل يستخدمهم. وكان هذا الوعي الطبقي داخل الطائفة جديداً على الخطاب السياسي السوري؛ إذ روج النظام دائماً لمبدأ "المساواة في دولة البعث"، لكن الحرب كشفت زيف هذا الشعار، وأظهرت أن الولاء للنظام لا يضمن العدالة. وفرضت الحرب تحولات في البنية العائلية والاجتماعية؛ فغياب الرجال عن القرى ووفاتهم بأعداد كبيرة جعل النساء يتحملن أدواراً جديدة في الإعالة

25 Bassam Haddad, *Business Networks in Syria: The Political Economy of Authoritarian Resilience* (Stanford: Stanford University Press, 2012), p. 76.

26 المشاركون مروان (اسم مستعار)، مقابلة مع بعد، آب/ أغسطس 2024.

27 Jihad Yazigi, "Syria's War Economy," European Council on Foreign Relations, 7/4/2014, accessed on 28/7/2026, at: <https://acr.ps/hBy2ssO>

28 Siham Alatassi, "The Role of the Syrian Business Elite in the Syrian Conflict: A Class Narrative," *British Journal of Middle Eastern Studies*, vol. 49, no. 3 (2022), pp. 443-445, accessed on 28/7/2026, at: <https://acr.ps/hBy2sJp>

وتكشف هذه الحالة أن الانتقاد لم يعد يقتصر على الهمس أو التذمر في الفضاءات الخاصة، بل بدأ يظهر أحياناً في صورة مواجهة صريحة وشديدة اللهجة من داخل البيئة العلوية نفسها، وإن ظل هذا النوع من الخطاب استثنائياً ومحفوظاً بالمخاطر. وتُظهر هذه التحولات في الخطاب الاجتماعي، على محدوديتها، بداية تفكك العلاقة الرمزية التي ربطت بين الطائفة والنظام عقوداً من الزمن.

وفي المقابل، حاول النظام مواجهة هذه الموجة من النقد الصامت بمزيد من التهيب والرقابة. فازدادت الاعتقالات داخل البيئة الموالية نفسها، وشملت شخصيات كانت تُعدّ من "أنصار الدولة"، لكنها عبّرت عن امتعاضها من الفساد أو سوء إدارة المعارك⁽³³⁾. ويشير أحد المشاركين في المقابلات إلى أن "الخوف لم يعد من المعارضة، بل من المخابرات"⁽³⁴⁾، وهي عبارة تختصر التحول الأهم في المزاج العام؛ إذ لم يعد التهديد خارجياً، بل أصبح داخلياً. وقد تحوّل النظام من حامٍ للجماعة إلى مصدرٍ لرهبتها، ما أدى إلى شرخ نفسي عميق في العلاقة معه. وكما يشير فخر حداد، لا تحمل الهويات الطائفية معنى سياسياً ثابتاً، بل تتغير دلالاتها تبعاً للسياقين السياسي والاجتماعي. وفي الحالة السورية، أسهمت التكلفة المتزايدة للحرب في إعادة تشكيل الطريقة التي نظر بها بعض أبناء الطائفة العلوية إلى علاقتهم بالنظام ودوره بوصفه ضامناً للحماية⁽³⁵⁾.

ولم يصل هذا التحول في المزاج العلوي خلال السنوات الأولى من الحرب إلى مستوى التمرد، لكنه شكّل البنية التحتية للانفصال المعنوي عن النظام. فمع تراكم الوعي بالخذلان، لم يعد الولاء فعلاً نابغاً من القناعة، بل من العجز والخوف من البديل. ومع ذلك، كان هذا الولاء القسري في طريقه إلى التفكك؛ لأن الطاعة التي لا تستند إلى إيمان سياسي حقيقي لا يمكن أن تدوم طويلاً. وهكذا، مثلت نهاية عام 2014 نقطة تحول حقيقية في علاقة الطائفة بالنظام؛ فلم يكن الانفصال قد تحقق بعد، لكنه أصبح ممكناً من الناحيتين النفسية والأخلاقية، ما مهّد لاحقاً لصعود أصوات معارضة من داخل البيئة العلوية نفسها.

رابعاً: إعادة تشكيل العلاقة مع النظام (2015-2024)

ابتداءً من عام 2015، أخذت العلاقة بين الطائفة العلوية والنظام مساراً مختلفاً؛ فلم تعد قائمة على معادلة "حامٍ وجماعة محمية"،

والتدهور الاقتصادي، والانقسام الداخلي الذي خلّفته الحرب. فبعد ثلاث سنوات من الاقتتال المتواصل، لم تعد الخطابات الرسمية عن "الصمود" و"التضحية" تلقى الصدى نفسه الذي حظيت به في بدايات الحرب. وفي القرى الساحلية، حيث ارتفعت أعداد القتلى إلى مستويات غير مسبوقة، تحوّل الحزن إلى تساؤل صامت عن جدوى الحرب واستمرار الولاء. ويقول أحد المشاركين في المقابلات، من ريف اللاذقية، إن "الأمهات توقفن عن البكاء في الجنازات، لأن الدموع لم تعد تكفي. كل ما نريده هو أن تنتهي الحرب"⁽²⁹⁾. وتكشف هذه العبارة أن الخوف الذي استخدمه النظام أداةً للتعبئة بدأ يفقد فعاليته، وأن التعبئة التي قامت على حماية الجماعة تحولت إلى حالة من الإنهاك الجماعي.

وفي المدن الكبرى، مثل اللاذقية وطرطوس، بدأ يتشكّل بين الشباب المتعلمين خطاب رمادي لا يعبر عن معارضة صريحة، لكنه ينطوي على نقد ضمني للنظام. فقد انتشرت على وسائل التواصل الاجتماعي صفحات يديرها علويون، تتحدث عن الفساد والمحسوبيات وسوء معاملة الجنود، وتستخدم لغة تمزج بين الولاء الوطني والاحتجاج الأخلاقي⁽³⁰⁾. ويعكس هذا الخطاب، الذي يجمع بين الانتماء والخذلان، بداية وعي جديد يتجاوز الثنائية التقليدية بين "الموالي" و"المعارض"، ويشير إلى تشكّل مساحة رمادية للانتماء السياسي، يمكن عدّها البذرة الأولى لما تسميه ليزا ويدين "الطاعة الساخطة"، أي الطاعة التي تستمر في مظهرها الخارجي، لكنها محمّلة بالرفض الداخلي⁽³¹⁾.

وبرز في هذه الفترة أيضاً تحوّل في اللغة الروحية والاجتماعية داخل أوساط الطائفة العلوية. فبعد أن كانت المرجعيات الدينية تتجنب الخوض في الشأن العام، بدأت بعض الشخصيات الروحية والاجتماعية تتحدث عن مسؤولية النظام تجاه أبناء الطائفة، وعن الحاجة إلى إعادة تعريف مفهوم "الوطنية" بما يتجاوز التضحية والموت. ومن الأمثلة اللافتة على النقد العلوي العلني للنظام الخطاب الصريح الذي هاجم فيه أحد الأكاديميين في جامعة تشرين حافظ الأسد وبشار الأسد، وانتقد تقديسهما في أوساط البيئة الموالية، ما جعله يوصّف بين بعض الموالين بأنه "علوي خائن" أو "مجنون"⁽³²⁾.

29 المشاركة ليلي (اسم مستعار)، مقابلة عن بعد، آب/ أغسطس 2024.

30 جاء في أحد المنشورات على منصة فيسبوك: "نحن مع الدولة، لكن الدولة ليست معنا" (لم تعد الصفحة موجودة عند كتابة هذه الدراسة).

31 Wedeen, p. 6.

32 محمد مهيب أحمد، "علوي خائن أم 'مجنون'؟.. دكتور جامعة تشرين الذي حوّل الموالين والمعارضين ومقتطفات من آرائه"، زمان الوصل، 14 كانون الأول/ ديسمبر 2018، شوهده في 2026/7/28، في: <https://acr.ps/hBy2t1i>

33 Samer Abbas, "No Homeland, No Future: Alawite Youth as the Backbone of the Assad Regime," Arab Reform Initiative, 4/8/2020.

34 المشاركون كريم (اسم مستعار)، مقابلة عن بعد، آب/ أغسطس 2024.

35 Haddad, Understanding Sectarianism, p. 8.

وتكتف، إلى جانب ذلك، التهرب من الخدمات الإلزامية والاحتياطية في الفترة 2014-2016، واتخذ بُعداً اجتماعياً علنياً⁽⁴¹⁾. وتشير شهادات ميدانية إلى أن "أي شاب يستطيع التهرب يفعل ذلك"، وأن العائلات باتت تخفي أبناءها بعدما كان الرفض يُعدّ خيانة مؤكدة. ولا يدل هذا التحول على السأم من الحرب فحسب، بل أيضاً على انهيار الواجب الجماعي الذي صاغ هوية قتالية في السنوات الأولى. وهنا انتقل الولاء من قناعة قيمية إلى سلوك تجنّبي تحدده حسابات التكلفة والمنفعة؛ فالقتال لم يعد من أجل "المجموع"، بل مخاطرة فردية في حرب بلا أفق. ويقول أحد المشاركين في المقابلات: "لم نعد نقاتل من أجل الأسد أو سورية، نقاتل لأننا لا نعرف طريقاً آخر"⁽⁴²⁾، وهي عبارة تلخص تحوّل الانضباط إلى عجز مقنّن، والطاعة إلى عادة قسرية بلا أفق سياسي.

وتعمّق الانقسام الطبقي داخل البيئة العلوية بصورة فجّة منذ عام 2016، مع صعود اقتصاد الحرب. وأخذ الحديث اليومي يميز بين "علويّ القصور" و"علويّ القرى"، وتكرر شعار "أولادنا يموتون وأولادهم يسافرون". ويصف مشاركون في المقابلات ريف الساحل بأنه بات بلا رجال: "إما الجبهات أو القبور"⁽⁴³⁾، في حين توسعت شبكات الاحتكار والتهريب والاستيراد في أيدي القلة المرتبطة بالأجهزة الأمنية⁽⁴⁴⁾. وقد هدم هذا التناقض الأساس الأخلاقي لشعار "التضحية المشتركة"، إذ حوّل المشترك الطائفي إلى تفاوت طبقي صارخ. وتبرز نبرة مريّة تجاه الدائرة الاقتصادية الأقرب إلى رأس الهرم: "الطماطم التي تخرج من طرطوس إلى العراق تُباع بأربعين ألفاً [...] من يستفيد؟ أسماء الأسد؟ لماذا لا توزع جزءاً من هذه المليارات؟"⁽⁴⁵⁾. ويعني انتقال السخط من "الفاستدين" المجهولين إلى أسماء محددة بعينها أن النقد بات يسمّي المسؤولين عن الخلل، لا البنى وحدها. ويتقاطع ذلك مع ما يلاحظه ديفيد كين بشأن قدرة الحروب على خلق مصالح اقتصادية جديدة لفئات محددة، بما يجعل استمرار الصراع وإدارته مرتبطين أحياناً بإعادة توزيع الموارد والامتيازات أكثر من ارتباطهما بالأهداف المعلنة للحرب⁽⁴⁶⁾.

وشكّلت قضية رامي مخلوف لحظة مفصلية في كسر يقين قديم بشأن "حرمة البيت الداخلي". وقد تمثّلت في الصراع الذي اندلع، منذ عامي

بل تحولت إلى شبكة متوترة من التبادلات القسرية والمقايضات القصيرة الأجل، في سياق إنهاك اجتماعي واقتصادي متراكم. وعلى المستوى الوجداني، انتقل شعور كثيرين من الاقتران القدري بالدولة إلى الإحساس بأنهم وقود لمعادلة سياسية لا تمنحهم في المقابل سوى الاستنزاف⁽³⁶⁾. وتتكرر في المقابلات لغة الخذلان بدلاً من الامتنان؛ إذ يقول أحد المشاركين: "كنا نعامل كالأبناء. واليوم، صرنا طرفاً من الأطراف، نُستدعى عند الحاجة ونُنسى لحظة دفع الفاتورة"⁽³⁷⁾. وهنا، لم يعد الخوف من "الخارج" محور الطاعة، بل الخوف من الانهيار الداخلي وتكلفة الاصطدام بالأجهزة، بما ينتج طاعة ذات مظهر عام، ورفضاً مكتوماً في الدوائر الخاصة.

وبرزت الجنازات وبيوت العزاء، منذ عام 2015، بوصفها مسرحاً مكشوقاً لاهتزاز الرموز التي قام عليها خطاب الحرب⁽³⁸⁾. فقد انتهت مرحلة تجميل الموت بلاغة الشهادة، وحلّت محلّها أصوات الأمهات الغاضبات، ورجال يتهمسون بأن التضحية فقدت معناها. وتوثق مقابلات من منطقة الساحل تعليمات صادرة عن الأجهزة الأمنية تمنع البكاء العلني، وتحثّ على ترديد شعارات وطنية؛ غير أن الواقع أخذ يخرج عن النص: "كانوا يطلبون منا أن نقول: فداء للوطن، لكن النساء صرن يصرخن: 'أعيدوا أبناءنا أولاً'"⁽³⁹⁾. ويكتسب هذا الشرح الرمزي أهمية بالغة، لأن السيطرة الرمزية كانت إحدى عرى العقد غير الصريح بين النظام والطائفة. وما إن تحولت الجنازة إلى مساحة اعتراض بدلاً من أن تكون طقس ولاء، حتى تغدو وظيفة الموت أداة تعبئة عاجزة عن إنتاج المعنى، وتتداعى معها سردية "المعركة المصرية" التي تكررت طويلاً. وفي هذا السياق، يشير محمد كاركوش إلى أن طقوس الحداد والجنازات الجماعية لا تقتصر على التعبير عن الفقد، بل تؤدي دوراً سياسياً في إعادة إنتاج الشرعية، وترسيخ الهوية الجماعية، وإضفاء معنى على التضحية. وعندما تفقد هذه الطقوس قدرتها على أداء هذه الوظيفة، تصبح أكثر قابلية للتحويل من أدوات للتعبئة والضبط الرمزي إلى فضاءات تكشف حدود الخطاب الرسمي وتراجع قدرته على احتواء الخسارة⁽⁴⁰⁾.

41 "الانهيار من الداخل.. لماذا يهرب العلويون من جيش الأسد؟"، الجزيرة نت، ترجمة فرح عصام، 2018/6/20، شوهد في 2026/7/28، في: <https://acr.ps/hBy2scR>

42 المشاركون هيثم.

43 المشاركون مروان.

44 رشيد حوراني، "الطائفة العلوية في سوريا: التمرد الكامن والزيف الصامت"، دراسة استراتيجية، المؤسسة السورية للدراسات وأبحاث الرأي العام، 2018/6/22، شوهد في 2026/7/28، في: <https://acr.ps/hBy2t0Y>

45 المشاركة ليلى.

46 David Keen, *The Economic Functions of Violence in Civil Wars* (London: Routledge, 2005), p. 11.

36 بدر الدين عرودي، "في سورية... غضب الأقليات ضد الأسد"، المركز العربي لدراسات سوريا المعاصرة، 2023/4/18، شوهد في 2026/7/28، في: <https://acr.ps/hBy2sJJ>

37 المشاركون جلال (اسم مستعار)، مقابلة عن بعد، آب/أغسطس 2024.

38 عمر أبو خليل، "خسائر العلويين في سورية وموقفهم من الأسد"، ملفات المركز، مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية، 2015/4/4، شوهد في 2026/7/28، في: <https://acr.ps/hBy2t0k>

39 المشاركة ليلى.

40 Muhammed Karakuş, "The Weaponization of Grief: How States and Non-State Armed Actors Use Mourning for Political Ends," *Akademik MATBUAT*, vol. 9, no. 1 (2025), pp. 40-61.

خامساً: الحركات الاحتجاجية الجديدة (2022-2024)

مع دخول الحرب عامها العاشر، بدأت تبرز مظاهر جديدة من الاحتجاج العلني والامتعاض الشعبي في المناطق ذات الغالبية العلوية، ولا سيما في مدن الساحل السوري. ولم تكن هذه التحركات واسعة أو منظمة، لكنها حملت دلالات رمزية عميقة، لأنها خرجت من داخل البيئة التي شكّلت تاريخياً العمود الفقري للنظام⁽⁵¹⁾. وجاءت هذه الموجات الاحتجاجية ردّاً على الانهيار الاقتصادي الشامل، وتدهور الخدمات الأساسية، واستمرار غياب أي أفق سياسي، بعد سنوات من الخطابات الرسمية التي وعدت بالنصر والاستقرار. ويقول أحد سكان اللاذقية في هذا السياق: "الناس هنا لم تعد تخاف كما في الماضي، صارت تقول بصوت عالٍ إن الدولة لم تعد تهتم بنا"⁽⁵²⁾. وتشهد هذه العبارة بانتقال واضح من الولاء القائم على الخوف إلى شعور متزايد بالخذلان تجاه السلطة. وفي ضوء ما يطرحه تيمور كوران بشأن "تزوير التفضيلات"، يمكن فهم هذا التحول بوصفه تراجعاً تدريجياً في استعداد الأفراد لإخفاء مواقفهم الحقيقية والتظاهر بالولاء العلني. فمع تآكل الثقة بقدرة الدولة على توفير الحماية والرفاه، أخذت المسافة تتسع بين الخطاب الرسمي والتصورات الخاصة للأفراد؛ وهو ما أتاح ظهور أشكال أشد صراحة من النقد والامتعاض داخل البيئة التي كانت تُعدّ تقليدياً من أكثر البيئات دعماً للنظام⁽⁵³⁾.

وفي صيف عام 2023، شهدت مدن الساحل السوري احتجاجات محدودة طالبت بتحسين الأوضاع المعيشية وخفض الأسعار⁽⁵⁴⁾. ولم تكن هذه التحركات مسمّسة بوضوح، لكنها شكّلت أول تعبير جماعي علني عن السخط داخل القاعدة الاجتماعية للنظام منذ بداية الحرب. فقد خرجت مجموعات صغيرة من المواطنين في اللاذقية وطرطوس، غالبيتهم من الموظفين وذوي القتلى في المعارك، رافعين شعارات تطالب بـ "العدالة" و"الكرامة". وعلى الرغم من أن هذه الشعارات بدت معيشية في ظاهرها، فإنها حملت مضموناً سياسياً ضمنياً، لأنها نقلت المسؤولية عن الانهيار إلى الدولة نفسها، بدلاً من "الأعداء الخارجيين" الذين لطالما حملهم النظام المسؤولية. ويقول أحد المشاركين: "كنا نقول إن العقوبات هي السبب. والآن،

2019 و2020، داخل الدائرة الضيقة للنظام السوري، بين مخلوف، ابن خال بشار الأسد، ومؤسسات الدولة السورية، بعدما عُدّ الرجل الاقتصادي الأقوى في البلاد على مدى عقدين تقريباً. ولم يُقرأ الأمر بوصفه صراعاً مالياً فحسب، بل نقضاً لأعراف القرابة السياسية التي مثلت طويلاً ضماناً لطبقة من أبناء الطائفة داخل منظومة الحكم. ويقول أحد المشاركين: "ما فعله النظام مع مخلوف صدمة [...] لقد شعر الناس أن الدولة بدأت تأكل أبناءها"⁽⁴⁷⁾. ويتجاوز أثر تلك اللحظة شخص مخلوف؛ إذ رسّخت لدى شرائح واسعة الاعتقاد بأن الانتماء الطائفي لا يوفر الحماية حين يتقاطع مع مصالح الحلقة الأضعف، وهو ما أضعف نهائياً سرديّة "مصرنا واحد". وهكذا، لم تعد "الطائفة" شعاراً مانعاً للانقسام، بل غطاءً يُستدعى عند الحاجة، وتُزال أقمعته عند صدام المصالح. ويمكن قراءة هذه اللحظة بوصفها مؤشراً على اهتزاز شبكات الرعاية والولاء التي تربط المركز بأبعاده؛ إذ تقوم هذه الشبكات على تبادل الحماية والمنافع والثقة بين الراعي وأتباعه. وعندما يتراجع اليقين باستمرار هذه الحماية، تضعف قدرتها على ضمان التماسك والولاء داخل البنية السلطوية⁽⁴⁸⁾.

وفي عمق الحقل الأمني، تُظهر المقابلات تحولاً في بوصلة الخوف من المعارضة إلى الأجهزة نفسها. فالبعبارة القاطعة "الخوف لم يعد من المعارضة، بل من المخبرات" ليست انطباعاً، بل توصيف دقيق لانتقال مركز التهديد من "الخارج" أو "الآخر" إلى قلب الدولة. وحين تصبح البيوت العلوية نفسها هدفاً للتفتيش والاعتقال بسبب منشور أو تدمر في جنازة، تتفكك الشرعية الوقائية التي طالما ادعتها السلطة. وعندما يصرّح أحد المشاركين: "نجلس بيننا فنسبّ بشار، فإذا دخل غريب من طائفة أخرى دافعنا عنه فوراً"⁽⁴⁹⁾، نكون أمام ازدواجية سياسية صريحة: عداً خاص للنظام يقابله دفاع علني عنه اتقاءً لبديل مخيف أو تجنباً لتهمة "خيانة الجماعة". ويعبّر هذا النمط من الطاعة المتوترة عما يصفه جيمس سكوت بالامتثال المحسوب؛ إذ يُبدي الأفراد ولاءً علنياً لا يعكس بالضرورة قناعاتهم الخاصة، بل يهدف إلى تجنب العقاب أو درء المخاطر الاجتماعية والسياسية. وفي هذا السياق، لا يلغي الامتثال الرفض، بل يتعايش معه في صورة خطابين متوازيين: أحدهما خاص يعبّر عن التذمر والنقد، وآخر علني يُظهر التماهي مع الجماعة أو السلطة عند الحاجة⁽⁵⁰⁾.

51 "شعارات مناهضة للأسد على جدران مناطق نفوذه باللاذقية وطرطوس"، قناة العربية، فيسبوك، 2020، شوهد في 2026/7/28، في: <https://acr.ps/hBy2sts>

52 المشاركون سامر.

53 Timur Kuran, *Private Truths, Public Lies: The Social Consequences of Preference Falsification* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1995), p. 3.

54 "ما دلالات الاحتجاجات في مناطق الساحل السوري ومناطق الطائفة العلوية؟"، قناة الحرة، يوتيوب، 2023/8/24، شوهد في 2026/7/28، في: <https://acr.ps/hBy2t0E>

47 المشاركون كريم.

48 Junyan Jiang, "Making Bureaucracy Work: Patronage Networks, Performance Incentives, and Economic Development in China," *American Journal of Political Science*, vol. 62, no. 4 (2018), pp. 982-999.

49 المشاركون جلال.

50 James C. Scott, *Weapons of the Weak: Everyday Forms of Peasant Resistance* (New Haven: Yale University Press, 1985), p. 284.

الفقر والعزلة. وقد اكتسبت هذه الأصوات، وإن بقيت محدودة العدد، أهمية رمزية لأنها خرجت من داخل الجماعة التي طالما احتكر النظام الحديث باسمها. فبعد عقود من تطابق الطائفة مع السلطة، بدأ التمايز بينهما يتضح في الخطاب العام، وإن ظل في إطار محتشم ومحسوب. وقد لخص أحد المشاركين في المقابلات هذا التحول بقوله: "نحن لا نريد إسقاط النظام، نريد فقط أن يعاملنا بوصفنا أناساً عاديين، لا أداة"⁽⁵⁹⁾. وتمثل هذه المراجعات العلنية ما تصفه الأدبيات بظاهرة "انشقاق النخب الرمزي"، أي اللحظة التي يبدأ فيها الخطاب الثقافي داخل الجماعة المتحالفة مع السلطة في تفكيك شرعيتها من الداخل⁽⁶⁰⁾.

وفي حين تجاهلت وسائل الإعلام الرسمية معظم الاحتجاجات، لجأت الأجهزة الأمنية إلى اعتقال عدد محدود من الناشطين، ثم أفرجت عنهم بعد أيام مع تحذيرات بعدم تكرارها. ويبدو أن النظام كان يدرك حساسية التعامل مع مناطقه القاعدية؛ إذ يمكن أن يفسر القمع المفرط في الساحل بوصفه علامة ضعف، لا قوة. لذلك، فضل استخدام الرقابة الهادئة والاحتواء التدريجي بدلاً من المواجهة المفتوحة. غير أن هذا السلوك نفسه كشف حدود قوته؛ إذ بات يعتمد على ضبط الغضب، لا على استعادة الولاء، وعلى منع التفكك، لا على إعادة التعبئة. وتدل هذه التطورات على أن الشرعية التي قامت على الخوف والحماية فقدت فعاليتها. فالعلويون الذين انخرطوا في هذه الاحتجاجات لم يفعلوا ذلك بدافع أيديولوجي أو رغبة في إسقاط النظام، بل نتيجة شعور متزايد بأن الدولة لم تعد تعبّر عنهم أو تحميهم. وقد عبّر أحد الأهالي عن ذلك بقوله: "لم نعد نصدق أن مصيرنا مرتبط بمصير بشار الأسد. لقد تعبنا"⁽⁶¹⁾. وتختزل هذه العبارة، على الرغم من بساطتها، مساراً كاملاً من التحول في علاقة الطائفة بالدولة، من تطابق وجودي إلى انفصال واقعي أساسه الفقر والإرهاق واليأس.

وهكذا، يمكن القول إن الحركات الاحتجاجية الجديدة، مهما كان نطاقها محدوداً، مثلت النتيجة الطبيعية لتآكل العقد السلطوي الضمني الذي حكم علاقة النظام بقاعدته العلوية منذ سبعينيات القرن العشرين. فهي لم تطرح بديلاً سياسياً أو مشروعاً أيديولوجياً، لكنها كسرت جدار الصمت الذي كان يمنح النظام شرعية داخلية. ولم يعد إبداء الولاء أمراً بديهياً، بل أصبح موضع تساؤل ومراجعة

بتنا نعرف أن السبب هو الفساد"⁽⁵⁵⁾. وتلخص هذه العبارة تحولاً رمزياً في الوعي الجمعي من خطاب التبرير إلى خطاب المساءلة، مما يكسر احتكار الدولة لتفسير الأزمات.

ولم تقتصر مظاهر الرفض على الشارع، بل امتدت إلى الفضاءين الاجتماعي والرقمي، حيث برزت لهجة انتقادية غير مسبوقة في أحاديث الناس ومنشوراتهم. وانتشرت على وسائل التواصل الاجتماعي عبارات ساخرة من أداء الحكومة ومن "الخطابات الفارغة" التي تتحدث عن الصمود، وأصبح تداول النكات السياسية عن المسؤولين أمراً مألوفاً في اللاذقية وطرطوس⁽⁵⁶⁾. ويمثل هذا التغير في اللغة اليومية، في حد ذاته، شكلاً من أشكال المقاومة الرمزية؛ إذ لم يعد الخوف من الأجهزة الأمنية يمنع الناس من التعبير عن امتعاضهم علناً. وفي هذا السياق، أشار أحد الشبان إلى أن "الناس لم يعودوا يهمسون، بل يتحدثون في المقاهي عن الفساد كأنهم يتحدثون عن الطقس"⁽⁵⁷⁾. إنها لغة عادية لاحتجاج غير عادي، تكشف تآكلاً تدريجياً في هيبة السلطة داخل مجال كان مغلقاً تماماً أمام النقد.

وفي الوقت نفسه، برزت مبادرات محلية محدودة ذات طابع مدني وإنساني في بعض قرى الساحل، هدفت إلى مساندة الأسر الفقيرة والجرحى والنازحين، وغالباً ما نُظمت من دون إشراف رسمي أو تمويل حكومي⁽⁵⁸⁾. وتشير هذه الأنشطة، وإن بدت بعيدة عن السياسة، إلى تحول في طبيعة الفاعلية الاجتماعية داخل المجتمع العلوي، من الاعتماد على الدولة إلى إعادة بناء شبكات تضامن أفقية خارج إطارها. فبعد أن كانت الدولة المرجعية الأساسية للرعاية والمساعدة، أصبحت عاجزة عن أداء هذا الدور، وبدأ الناس يعتمدون على أنفسهم في تدبير شؤونهم اليومية. وتُظهر مثل هذه التحركات أن إعادة إنتاج المعنى الجمعي لم تعد تمر عبر النظام، بل من خلال المبادرات الذاتية، وهو ما يعمق تآكل شرعيته الرمزية.

وعلى الصعيد السياسي، عبّر عدد من المثقفين والناشطين العلويين عن مواقف نقدية علنية تجاه النظام، سواء عبر وسائل الإعلام أو على صفحاتهم الشخصية في وسائل التواصل الاجتماعي. واستخدم بعضهم لغة رمزية تتحدث عن "الكرامة المهذورة" و"الدماء التي ذهبت سدى"، في إشارة إلى تضحيات الحرب التي لم تثمر سوى

55 المشارك رامي.

56 أورينت نت، "نضامن مع صحفي انتقد بشار الأسد.. رحلة الناشط العلوي يونس سليمان تنتهي بالمشفى"، أورينت نت، 2022/3/2، شوهد في 2026/7/28، في: <https://acr.ps/hBy2sK3>

57 المشارك نادر (اسم مستعار)، مقابلة عن بعد، آب/أغسطس 2024.

58 ميرفت عوف، "عاصفة في عرين الأسد.. هل يلفظ العلويون نظام بشار؟"، الجزيرة نت، 2023/8/30، شوهد في 2026/7/28، في: <https://acr.ps/hBy2sdb>

59 المشارك فادي.

60 Guillermo O'Donnell & Philippe C. Schmitter, *Transitions from Authoritarian Rule: Tentative Conclusions about Uncertain Democracies* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1986), p. 37.

61 المشارك مروان.

إحدى أهم ركائزها الاجتماعية⁽⁶⁴⁾. ومع تفكك هذا العقد، لم يكن سقوط النظام في كانون الأول / ديسمبر 2024 حدثاً مفاجئاً بل نتيجة منطقية لانحلال الروابط التي ربطته بقاعدته الاجتماعية. ويمكن إجمال أهم الاستنتاجات المستخلصة من الدراسة في النقاط الآتية:

1. يبرز من خلال التحليل أن الشرعية في الأنظمة السلطوية ليست ثابتة، بل تقوم على توازن متبدل بين الحماية المادية والإقناع الرمزي. وقد استخدم النظام أدوات متعددة لتثبيت هذا التوازن، من بينها خطاب الخوف من الآخر الطائفي، وآلة التعبئة العسكرية، وشبكات الرعاية الاقتصادية. غير أن هذه الأدوات فقدت فعاليتها عندما لم يعد النظام قادراً على ضمان الحد الأدنى من الأمن الاقتصادي والاجتماعي، أو إنتاج معنى سياسي لتضحيات الحرب. فمع تضاؤل قدرة الدولة على الوفاء بوعودها، تراجع الإيمان بفعالية "الحماية"، وتحوّل الخوف من الخارج إلى خوف من الداخل، أي من أجهزة الدولة نفسها. ويتجلى هنا ما أشار إليه بيير بورديو بشأن هشاشة الهيمنة الرمزية عندما تفقد التصنيفات والمعاني التي تنتجها السلطة قدرتها على نيل القبول والاعتراف الاجتماعي؛ فتراجع فعاليتها بوصفها أدوات لتنظيم الإدراك وتفسير الواقع⁽⁶⁵⁾. وقد انكشفت فجوة واسعة بين اللغة الرسمية التي تتحدث عن "الصمود" والواقع المعيش.

2. يوضح التحليل أن الطائفية لم تعد أداة تعبئة فعالة، بل تحولت إلى عبء سياسي متزايد. فعلى الرغم من أن النظام بنى منظومته على فكرة الدفاع عن الأقليات في مواجهة الأغلبية، فإن استمرار الحرب والعقوبات والانقسام الطائفي داخل الطائفة العلوية أضعف منطق "المصير المشترك". وعندما تركزت المكاسب الاقتصادية والسياسية في أيدي نخبة ضيقة من المحيطين بالعائلة الحاكمة، فقدت الهوية الطائفية قدرتها على العمل عاملاً للتوحيد. وهكذا، تحوّل الانتماء من رابطة تضامن إلى ساحة للتفاوت والانقسام الداخلي، وهو ما ينسجم مع ما يذهب إليه فر حداد من أن أهمية الهويات الطائفية ومعانيها

في الحياة اليومية. ومع نهاية عام 2024، كانت الطائفة التي بُنيت عليها قاعدة النظام الاجتماعية قد تحولت إلى جماعة مرهقة تبحث عن البقاء، لا عن الدفاع عن السلطة، في حين غدت الاحتجاجات، على محدوديتها، تعبيراً عن انفصال رمزي كامل بين الدولة وقاعدتها الاجتماعية.

ومع ذلك، لم تتحول المعارضة العلوية إلى تنظيم سياسي واضح لأسباب بنيوية متشابكة، أبرزها سيف الأجهزة المسلط عليها، والانسداد الجغرافي أمام الهجرة الآمنة، والمخيل الانتقامي الذي تغذيه حكايات الأعوام 2011-2013. ويلخص أحد المشاركين في المقابلات هذا المأزق بقوله: "إذا كنت سنيّاً معارضاً، تستطيع أن تهرب شمالاً [...] أما العلوي المعارض، فأين يذهب؟"⁽⁶²⁾. لذلك، ظل سقف الفعل، في معظم الحالات، عند حدود الاحتجاج الرمزي، والانسحاب من المشاركة القتالية، والتعبير الرقمي، والتهمك على السلطة. غير أن تراكم هذه الأفعال الجزئية أنتج تآكلاً مستمراً في رصيد الشرعية، وتفكيكاً هادئاً للعقد السلطوي القديم، في ما يمكن اعتباره تجلياً لمرحلة "اللامقاومة المنظمة"، التي تقدّمها الأدبيات بوصفها نمطاً من الاعتراض الصامت حين تفقد السلطة قدرتها على التعبئة من دون أن تواجه مقاومة صريحة⁽⁶³⁾.

استنتاجات

تكشف دراسة التحولات التي شهدتها الطائفة العلوية في الفترة 2011-2024 مساراً تدريجياً لانحلال أحد أكثر العقود الاجتماعية تماسكاً في الشرق الأوسط المعاصر. فعلى مدى نصف قرن، حافظ النظام السوري على قدر مهم من شرعيته داخل هذه الطائفة عبر معادلة غير صريحة، قامت على توفير الحماية والأمن والاستقرار في مقابل الولاء السياسي. ويمكن النظر إلى هذه العلاقة بوصفها شكلاً من أشكال العقد السلطوي الضمني؛ إذ ارتبط القبول باستمرار النظام في قدرته على توفير الأمن والاستقرار والحماية الاجتماعية، أكثر من ارتباطه بالمشاركة السياسية أو التمثيل الديمقراطي. ومع تراجع قدرة الدولة على الوفاء بهذه الوظائف خلال سنوات الحرب، وارتفاع التكلفة البشرية والاقتصادية التي تحمّلها قطاعات واسعة من المجتمع، بدأت الأسس التي قام عليها هذا العقد تفقد فعاليتها تدريجياً. وظهرت، تبعاً لذلك، أشكال متزايدة من التذمر والاحتجاج وإعادة النظر في العلاقة بين السلطة والبيئة التي شكّلت تاريخياً

64 Michel Camau, "Changements politiques et problématique du changement," in: Michel Camau (ed.) *Changements politiques au Maghreb* (Paris: Éditions du CNRS, 1991), p. 9.

65 Pierre Bourdieu, *Language and Symbolic Power* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991), p. 170.

62 المشاركون كريمة.

63 Scott, p. 4.

الجماعة إطاراً لتبرير الحرب، عمقت السياسات الاقتصادية غير المتكافئة الفجوة بين علويّ الريف، الذين قدّموا القسم الأكبر من التضحيات، وعلويّ المدن والنخب الاقتصادية، الذين راكموا الثروة عبر شبكات المحسوبية والتهريب. وأعاد هذا الانقسام تعريف الانتماء، من رابطة طائفية إلى وعي طبقي جديد يتساءل عن عدالة النظام نفسه. ومع أن هذا الوعي لم يتحول إلى حركة سياسية متماسكة، فإنه نزع من النظام إحدى أهم ركائز خطابه، وهي فكرة "المساواة الثورية". وقد جعل الفشل في توزيع الخسائر والمكاسب على نحو متوازن النظام يبدو، حتى في نظر حاضنته، سلطة تحتكر الأمل والربح معاً.

6. تبرز التحركات المدنية والاحتجاجية، بين عامي 2022 و2024، دليلاً على تحوّل الخضوع السلبي إلى فعل رمزي من المقاومة. ولم تكن هذه الحركات تطالب بإسقاط النظام، بل سعت لاستعادة معنى السياسة من خارج مؤسسات الدولة. فهي تمثّل ما يمكن وصفه، بلغة تشارلز تيلي وسيدني تارو، بـ "التحول من الاحتجاج الكامن إلى الاحتجاج العلني"؛ إذ يتحول الغضب المتراكم إلى سلوك جمعي محدود، لكنه كافٍ لكسر احتكار الدولة للفضاء العام⁽⁶⁹⁾.

7. تؤكد هذه التحولات أن سقوط النظام لم يكن نتيجة حتمية للصراع العسكري أو الضغط الخارجي، بل نتاجاً لانهيار التوازن الداخلي بين الدولة وقاعدتها الاجتماعية. فالنظام لم يسقط عندما فقد السيطرة الميدانية على بعض المناطق فحسب، بل عندما فقد السيطرة الرمزية على مجتمعه الحاضن. وتبرهن هذه النتيجة على أن القوة المادية وحدها لا تكفي لضمان البقاء في الأنظمة السلطوية، وأن البقاء مشروط بقدرة السلطة على تجديد عقدها الاجتماعي عبر مؤسسات قادرة على توزيع المنافع وإعادة إنتاج القبول⁽⁷⁰⁾.

وبهذا المعنى، تُظهر نتائج الدراسة أن التحول الأعظم الذي قاد إلى انهيار النظام لم يكن في ميزان القوى العسكري وحده، بل في بنية العلاقة بين الحاكم والطائفة التي شكلت عموده الاجتماعي. ومع انقسامها داخلياً وتآكل قدرتها على إنتاج الولاء الجمعي، فقد النظام غطاءه الاجتماعي والرمزي معاً. ومن ثم، لم تكن نهاية حكم الأسد انهياراً مفاجئاً لبنية صلبة، بل تتويجاً لمسار طويل من التآكل

السياسية ليست ثابتة، بل تتبدل تبعاً للظروف السياسية والاجتماعية التي تعمل ضمنها⁽⁶⁶⁾.

3. تؤكد التجربة السورية أن الاعتماد المفرط على العنف لا يكفي للحفاظ على الشرعية على المدى الطويل. فمع استمرار الحرب وتزايد الخسائر البشرية، لم يعد الخطاب القائم على الصمود والتضحية قادراً على تعويض التدهور الاقتصادي والاجتماعي الذي أصاب البيئات الحاضنة للنظام. ومع مرور الوقت، بدأت قطاعات من أبناء الطائفة العلوية تقارن بين حجم التضحيات التي قدمتها والمكاسب الفعلية التي تحققت لها، وهو ما أضعف قدرة النظام على إضفاء معنى على تلك التضحيات. وبهذا المعنى، لا تُقاس الشرعية بقدرة الدولة على فرض السيطرة أو تحقيق الانتصارات العسكرية فحسب، بل أيضاً بقدرتها على الحفاظ على منظومة القيم والوعود التي تبرر سلطتها في نظر مؤيديها. وعندما يتسع الفارق بين الخطاب الرسمي والواقع المعيش، تتآكل الأسس الرمزية للشرعية تدريجياً⁽⁶⁷⁾.

4. تشير التحولات التي شهدتها البيئة العلوية خلال سنوات الحرب إلى حدود فعالية الخوف بوصفه أداة للحكم. ففي المراحل الأولى من الصراع، أسهمت المخاوف من التهديدات الأمنية ومن مستقبل الجماعة في تعزيز التماسك خلف النظام. غير أن استمرار الحرب وتزايد التكلفة البشرية والاقتصادية أوجدا مساحات متنامية للتشكيك في الخطاب الرسمي. ولم يُعبّر عن هذا التشكيك دائماً بصورة علنية، بل ظهر غالباً في الأحاديث الخاصة، والشبكات الاجتماعية المحلية، والانتقادات غير المباشرة. ويمكن فهم هذه الديناميات في ضوء تمييز جيمس سكوت بين "النص العلني"، الذي يُظهر الامتثال أمام السلطة، و"النص الخفي"، الذي يتضمن أشكالا من النقد والرفض المتداول بعيداً عن رقابتها. ومن هذا المنظور، لا يعني استمرار مظاهر الولاء العلني بالضرورة استمرار القناعة بالنظام، بل قد يخفي تآكلاً تدريجياً في الثقة بشرعيته⁽⁶⁸⁾.

5. يُظهر التحليل أن التفكك الطبقي داخل الطائفة العلوية أدى دوراً حاسماً في تقويض شرعية النظام. فبينما وُظفت هوية

66 Fanar Haddad, *Sectarianism in Iraq: Antagonistic Visions of Unity* (London: Hurst & Company, 2011), p. 25.

67 Claire McLoughlin, "Public Services as Carriers of Ideas That (De-) Legitimise the State: The Illustrative Case of Free Education in Sri Lanka," *World Development*, vol. 173 (2024).

68 James C. Scott, *Domination and the Arts of Resistance: Hidden Transcripts* (New Haven: Yale University Press, 1990), p. 19.

69 Charles Tilly & Sidney Tarrow, *Contentious Politics* (Oxford: Oxford University Press, 2015), p. 7.

70 Margaret Levi, *Consent, Dissent, and Patriotism* (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), p. 20.

المراجع

العربية

- أبو خليل، عمر. "خسائر العلويين في سورية وموقفهم من الأسد".
ملفات المركز. مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية
والاستراتيجية. 2015/4/4. في: <https://acr.ps/hBy2t0k>
بشارة، عزمي. الطائفة، الطائفية، الطوائف المتخيلة. ط 2. الدوحة/
بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.
حوراني، رشيد. "الطائفة العلوية في سوريا: التمرد الكامن
والنزيف الصامت". دراسة استراتيجيية. المؤسسة
السورية للدراسات وأبحاث الرأي العام. 2018/6/22.
في: <https://acr.ps/hBy2t0Y>
غليون، برهان. المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات. ط 3. الدوحة/
بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013 [1979].
وورن، تورشتين شيوتر. العلويون: الخوف والمقاومة؛ كيف بنى
العلويون هويتهم الجماعية في سورية؟. ترجمة ماهر الجنيدي،
مراجعة فادي كحلوس. إسطنبول: مركز حرمون للدراسات
المعاصرة؛ دار ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع، 2018.

الأجنبية

- Abbas, Samer. "No Homeland, No Future: Alawite
Youth as the Backbone of the Assad Regime." *Arab
Reform Initiative*. 4/8/2020.
Alatassi, Siham. "The Role of the Syrian Business Elite
in the Syrian Conflict: A Class Narrative." *British
Journal of Middle Eastern Studies*. vol. 49, no. 3
(2022). at: <https://acr.ps/hBy2sJp>
Bishara, Azmi. *Sectarianism without Sects*. London:
Hurst & Company, 2021.
Bourdieu, Pierre. *Language and Symbolic Power*.
Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991.
Camau, Michel (ed.) *Changements politiques au Maghreb*.
Paris: Éditions du CNRS, 1991.
Haddad, Bassam. *Business Networks in Syria: The Political
Economy of Authoritarian Resilience*. Stanford:
Stanford University Press, 2012.

الداخلي، تحول فيه الخوف إلى سخط، والولاء إلى طاعة شكلية،
والطائفة من حامية للسلطة إلى شاهدة على أفولها.

وتبين الدراسة أن العلاقة بين نظام الأسد والطائفة العلوية شهدت،
خلال سنوات الحرب السورية، تحولاً تدريجياً من علاقة قائمة على
الحماية والولاء إلى أخرى مثقلة بالاستنزاف والخذلان والانقسام
الداخلي. فقد نجح النظام، في المراحل الأولى من الصراع، في تعبئة
قطاعات واسعة من البيئة العلوية عبر خطاب الخوف الوجودي،
وربط بقاء الجماعة ببقاء السلطة. غير أن استمرار الحرب، وتصاعد
الخسائر البشرية، وتدهور الأوضاع المعيشية، واتساع الفجوة بين
النخب المرتبطة بمراكز النفوذ والفئات التي دفعت التكلفة الأكبر،
عوامل أضعفت مجتمعة الأسس التي قام عليها هذا العقد السلطوي
الضماني. وبدلاً من أن تبقى الطائفة فضاءً متماسكاً لإعادة إنتاج
الولاء، أصبحت ساحة تتراكم فيها مشاعر السخط والتعب والاعتراض
الصامت، قبل أن تتخذ، في مراحل لاحقة، أشكالاً أكثر علنية في
النقد والاحتجاج.

ومن هذا المنظور، لا تقترح الدراسة أن سقوط النظام في كانون الأول/
ديسمبر 2024 يمكن تفسيره بهذا العامل وحده، بل تجادل بأن تآكل
العلاقة بين السلطة وإحدى أهم قواعدها الاجتماعية يكشف بُعداً
جوهرياً من أبعاد الانهيار. فالأنظمة السلطوية لا تستمر بالعنف
وحده، بل بقدرتها أيضاً على الحفاظ على حد أدنى من التماسك
الاجتماعي والشرعية الرمزية داخل البيئات التي تستند إليها. وعندما
يفقد خطاب الحماية قدرته على الإقناع، وتتحول الطائفة من رصيد
داعم إلى فضاء منهك ومنقسم، تصبح السيطرة أشد هشاشة مهما
استمرت أدوات القسر. وبذلك، تُظهر الحالة السورية أن انهيار
النظام لم يكن حدثاً مفاجئاً أو نتيجة حصريّة للتحويلات العسكرية
والإقليمية، بل تتويجاً لمسار طويل من التآكل الداخلي أصاب العلاقة
بين الحاكم وقاعدته الاجتماعية، وأفقد السلطة قدرتها على إعادة
إنتاج الولاء الذي شكّل أحد أهم شروط بقائها عقوداً طويلة.

- Case of Free Education in Sri Lanka." *World Development*. vol. 173 (2024).
- O'Donnell, Guillermo & Philippe C. Schmitter. *Transitions from Authoritarian Rule: Tentative Conclusions about Uncertain Democracies*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1986.
- Scott, James C. *Weapons of the Weak: Everyday Forms of Peasant Resistance*. New Haven: Yale University Press, 1985.
- _____. *Domination and the Arts of Resistance: Hidden Transcripts*. New Haven: Yale University Press, 1990.
- Tilly, Charles & Sidney Tarrow. *Contentious Politics*. Oxford: Oxford University Press, 2015.
- Wedeen, Lisa. *Ambiguities of Domination: Politics, Rhetoric, and Symbols in Contemporary Syria*. Chicago: University of Chicago Press, 1999.
- Yazigi, Jihad. "Syria's War Economy." European Council on Foreign Relations. 7/4/2014. at: <https://acr.ps/hBy2ssO>
- Haddad, Fanar. *Sectarianism in Iraq: Antagonistic Visions of Unity*. London: Hurst & Company, 2011.
- _____. *Understanding Sectarianism: Sunni-Shi'a Relations in the Modern Arab World*. London: Hurst & Company, 2020.
- Hinnebusch, Raymond. *Authoritarian Power and State Formation in Ba'thist Syria: Army, Party and Peasant*. Boulder: Westview Press, 1990.
- Jiang, Junyan, Jiang. "Making Bureaucracy Work: Patronage Networks, Performance Incentives, and Economic Development in China." *American Journal of Political Science*. vol. 62, no. 4 (2018).
- Karakuş, Muhammed. "The Weaponization of Grief: How States and Non-State Armed Actors Use Mourning for Political Ends." *Akademik MATBUAT*. vol. 9, no. 1 (2025).
- Keen, David. *The Economic Functions of Violence in Civil Wars*. London: Routledge, 2005.
- Kerr, Michael & Craig Larkin (eds.). *The Alawis of Syria: War, Faith and Politics in the Levant*. Oxford: Oxford University Press, 2015.
- Kuran, Timur. *Private Truths, Public Lies: The Social Consequences of Preference Falsification*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1995.
- Levi, Margaret. *Consent, Dissent, and Patriotism*. Cambridge: Cambridge University Press, 1997.
- Lund, Aron. *The Ghosts of Hama: The Bitter Legacy of Syria's Failed 1979-1982 Revolution*. Stockholm: Swedish International Liberal Centre, June 2011.
- Makara, Michael. "Rethinking Military Behaviour during the Arab Spring." *Defense & Security Analysis*. vol. 32, no. 3 (2016).
- McLoughlin, Claire. "Public Services as Carriers of Ideas That (De-)Legitimise the State: The Illustrative